المحاضرة الرابعة
المصطلحات المحورية في النقد العربي
(الأدب، البلاغة)

الأدب

لم يعانِ مصطلح "الأدب" ما عاناه مصطلح "الشعرية" من التحريف والتمييع، ولكنه لم يسلم تماما من تأثير إغراء الحداثة، ولم يخلص كامل الإخلاص لجاذبية المعنى الذي كان وراء ارتباطه بمفهومه.

إن مصطلح "الأدب" يستعمل اليوم، كما كان يستعمل قديما، بمفهومين متمايزين مستقل أحدهما عن الآخر كامل الاستقلال، هما:

1- المعنى الأخلاقي الذي يقصد به حسن السلوك ولطف المعاملة وارتقاء الذوق الاجتماعي؛ وهو المعنى الذي أشار إليه صاحب "التعريفات" في قوله: "(الأدب): عبارة عن معرفة ما يُحترز به عن جميع أنواع الخطأ."[1] كما ورد قبل ذلك في "لسان العرب": "الأدَبُ: الذي يتأدّبُ به الأديبُ من الناس؛ سُمي أدبًا لأنّه يأدِب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح."[2]

2- المعنى الاحترافي الذي يُقصد به الاختصاص بإجادة التأليف اللغوي في الشعر والنثر، واحتراف ذلك كتابةً وحسب، أو دراسةً وحسب، أو كتابةً ودراسة. وهو المعنى الذي تأخر الاصطلاح عليه بهذا المصطلح إلى العصر العباسي، واستقر الآن مفهوما لاختصاص تعليمي بعينه هو تعليم اللغة وما يتصل بها من تثقيف لملكة التعبير والفهم والتواصل، ومن تدريب على إجادة التأليف أو القدرة على فهمه وتحليله.

الذي يعنينا من مصطلح "الأدب" هو المعنى الثاني. والذي يعنينا مناقشته هو ما إذا كان مفهوم الأدب في الإدراك العربي المعاصر وفيا للجذر اللغوي الذي انحدر منه، وللمفهوم الاصطلاحي العربي القديم، وما إذا كانت نظريات الحداثة ومناهجها لم تضيّق مفهوم الأدب، ولم تُغرِ العرب بتضييقه وإعاقته عن أداء دوره في الحياة.

لستُ أبالغ حين أزعم أن العامة من العرب في الزمن المعاصر لا يكادون يدركون شيئا عن هذا "الأدب" الذي يحدّثهم بعض أبنائهم أنهم يدرسونه. وأن بعض الذين يدركون شيئا إنما يدركون أن "الأدب" هو الانشغال بالشعر والقصة والعواطف دونما حاصل يعود على المجتمع بالغَناء. وليس يضر مصطلح "الأدب" أن يحول التخلف

---

[1] الجرجاني (علي بن محمد بن علي)، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423هـ/2002م. ص21.

[2] ابن منظور، لسان العرب، مج1، ص43، مادة (أدب).

الثقافي دون إدراك حقيقته ودوره في الحياة، ولكن يضره أيما إضرار أن يكون إدراك أهله المتخصصين فيه المحترفين له أنفسهم إدراكا يغض من شأنه ويقذف به إلى عتمات الضياع.

كان الأدب في بداية العصر الحديث هو جملة الكلام الذي أجاد أصحابه تأليفه في شتى موضوعات الحياة وأغراض النفس والاجتماع. وكان الأديب هو المتميز بقدرته على التفكير والتعبير، والتخييل والابتكار، وغالبا ما يكون له شأن في مجتمعه، ودور في ترقية الأذواق وتغيير الأوضاع وتحريك الهمم إلى ما هو أعلى وأكرم. ثم انطوى ذلك الزمن؛ زمن العقاد والرافعي والزيات وشوقي وحافظ وطه حسين وأحمد أمين وسيد قطب.. وجاء زمن آخر الأدباء فيه هم الشعراء والقصاصون والدارسون لآدابهم لا غير؛ حيث الشعر رومنسية ورمزية وسريالية وبعض من القومية والواقعية، وحيث القصة أوار العواطف ونزوات التحرر وأهواء النفوس وصراع الطبقات وقليل من الهموم الفكرية والحضارية، وحيث الدراسة تفسير للمضمون وتحليل للبنية وتحصيل لحاصل وفق مناهج أخذ العربي يتعلمها عن الحداثة الغربية.. ثم جاء زمن آخر فإذا الفكر الحداثي يبسط سلطانه، والمناهج الحداثية تفرض هيمنتها، فإذا الأدب هو اللغة لذاتها لا لما تحمله من دلالة وتضطلع به من رسالة، وإذا الأدباء هم الذين ينشغلون بلعبة الكلمات وتأليف الخيالات المثيرة وابتكار الألعاب اللفظية البهلوانية السخيفة، وإذا الدراسات الأدبية هي التحليلات البنوية أو السيميائية أو التفكيكية أو التأويلية لخطاب شعري أو سردي غير مفهوم، أو غير ذي عمق، أو غير ذي صلة بالحياة، تتكرر وتتكرر، وتعقد لها الندوات والمؤتمرات، والأدباء والدارسون لا تكاد تستقيم لكثير منهم جملة فصيحة على الأسلوب العربي الأصيل. فما الذي سينتج عن ذلك سوى أن يعتقد العامة أن "الأدب" هو ذلك النوع من الكلام الذي يشبه الفراغ، وأن الأدباء هم ذلك النوع من البشر الذين لا ينتجون ولا يفيدون المجتمع إلا ببعض ما يُحتمل أن يُعينه على قتل الوقت وتزجية الفراغ.

إن الأدب (Littérature) في الثقافة الغربية يتصل بالأصل اللاتيني (Littératura) الذي يعنى المعرفة بفن كتابة الحروف. وإن هذا المفهوم قد تطور مرارا، وتقلب بين معاني إجادة التأليف ورقي الذوق والتعبير عن روح العصر والمجتمع، إلى أن بالغ الواقعيون في النزول به إلى خدمة القضايا الاجتماعية بعد انتشار فن الرواية، فكان رد الفعل على هذه المبالغة مبالغة في الاتجاه المعاكس: تجريد الأدب من أية منفعة سوى المتعة الفنية، ومن كل غاية سوى اللعبة اللغوية، ومن كل هوية غير الهوية الشكلية؛ فالشكلانيون يعرفون الأدب بقولهم: "هو تنظيم محدَّد للغة. إنّ له قوانينه، وبناه وصنعاته النوعية الخاصّة، التي ينبغي دراستها في ذاتها وليس ردّها إلى أيّ شيء آخر. والعمل الأدبي ليس حمّالة أفكار، أو انعكاسا للواقع المادّي ولا هو تجسيد لحقيقة ما متعالية: إنّه واقعة مادية، ويمكن بالأحرى تحليل أدائه لوظيفته كما يمكن للمرء أن يفحص آلة. و هو مؤلّف من كلمات، وليس من موضوعات أو مشاعر، ومن الخطأ رؤيته كتَعْبِير عن رأي المؤلّف"[3]. والبنويون يحتضنون هذا المذهب احتضانا

[3] يري ايغلتون، نظرية الأدب، تر: ثائر ديب، (د.ط)، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1995م، ص13.

كاملا؛ يقول رولان بارت: "ليس الأدب تواصلاً وإنّما لغة. وقلّما يجدُ الكاتب نفسه متورّطًا بوصفه كذلك في استعمال اللّغة منه في طريقة استعمالها. فالأدب أوّلا وقبل كلّ شيء نشاط شكلي"[4].

ليس من شك في أن "الأدبية" في "الأدب" إنما هي شأن شكلي يتعلق بطريقة استعمال اللغة وأسلوب التعبير. ذلك ما ظل النقد العربي القديم يردده ويجادل عنه منذ الجاحظ وصولا إلى عبد القاهر والقرطاجني مرورا بجمهرة من النقاد وعلماء البلاغة[5]. ولكن الفرق واسع بين الاعتقاد بأن أدبية الأدب التي تميزه عن غيره من الكلام هي في لغته المتصفة بالبلاغة أو الإثارة أو الجمال أو القدرة على الإمتاع أو غير ذلك من الصفات المعبرة عن قوة التأثير، والاعتقاد بأن الأدب لغةٌ وليس تواصلا، وأن العمل الأدبي ليس حمّالة أفكار وموضوعات ومشاعر، ومن الخطأ رؤيته كتَعْبِير عن رأي المؤلّف.

إن العربي لم يتصور اللغة إلا أداة للتواصل. ولم يتصور الأدب إلا ذلك اللون من الكلام الذي يشحن اللغة بمزايا أسلوبية تزيدها قدرة على التواصل. فمعلوم أن "الكلام بمختلف أنواعه ومستوياته يستهدف التواصل الإنساني. وعندما يتميز الكلام الأدبي بلغته المجازية ومنحاها الجمالي فلكي يعمّق هذا التواصل ويضفي عليه أبعادا أوسع وسحرا أبلغ وأثرا من نوع خاص، وليس ليقطع هذا التواصل. وفي أشد حالات الأديب انعزالا وفردية وصدورا عن الحس الباطن والانفعال الطارئ أو الغامض فإنه لا يكاد يباشر الإبداع حتى يتبدى أمامه قارئ ما، فيراعي في صياغة أدبه الوصول إلى هذا القارئ، وتلك هي طبيعة الأشياء وفطرة الإنسان ووظيفة الكلمات، ولا يحتاج الأمر إلى فلسفة كبيرة."[6]

وإذا صحّ للغربي أن يتصور الأدب مجرد بناء شكلي يتسم بمادية شبيهة بمادية الآلة، أو باستقلال عن الدلالة العاطفية أو الفكرية أو الاجتماعية كاستقلال المشهد الطبيعي عن هذه الدلالة، فإن العربي لا يصح له ذلك؛ ذلك أن الغربي لا يخون بذلك أصل الدلالة اللغوية للأدب (Littérature)، إذ هي الحرف (Lettre)؛ والحرف شكل ومادة. أما العربي فهو يخون هذا الأصل في لغته وحضارته، إذ هو معنى "الدعاء" أولا، ثم معنى رمزية الحس الإنساني وحسن الخلق متجسدة في الإطعام (المأدبة) ثانيا، ثم معنى حسن الخلق مطلقا (أدّبني ربي فأحسن تأديبي)، ثم معنى رواية الأشعار والأخبار المحفزة على المروءة ومكارم الأخلاق، ثم معنى تعليم أولاد الخاصة فنونا من علوم العرب كالخبر والشعر والعربية ونحوها مما يحصلُ به معرفةُ ما يُحترز به عن جميع أنواع الخطأ، ثم نشأ

---

[4] فانسان جوف، رولان بارت والأدب، ترجمة محمد سويرتي، ، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1994م، ص78.

[5] مما يدل على ذلك قول عبد القاهر: "واعلم أنك لست تنظر في كتاب صنّف في شأن البلاغة وكلام جاء عن القدماء إلا وجدته يدل على فساد هذا المذهب (مذهب تقديم الكلام بمعناه، بمضمونه) ورأيتهم يتشددون في إنكاره وعيبه والعيب به." (عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1402هـ/1981م، ص197).

[6] عبد الملك بومنجل، جدل الثابت والمتغير في النقد العربي الحديث، عالم الكتب الحديث، إربد-الأردن، ط1، 1431هـ/2010، ج1، ص34.

من كل ذلك المعنى الاصطلاحي[7] المستقر إلى الآن: "الإجادة في فنَّي المنظوم والمنثور"، والاستعانة على ذلك بجمع "ما عساه تحصل به الملَكة، من شعر عالي الطبقة، وسجع متساوٍ في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية، مع ذكر بعض من أيام العرب ليفهم به ما يقع في أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة، والأخبار العامة". وهو التعريف الذي وضعه ابن خلدون، وختمه بقوله: "ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف."[8]

نعم؛ إن المعنى الاصطلاحي للأدب عند العرب قد استقل عن معناه اللغوي، إذ ليس يُشترط في الأدب أن يكون حاملا أدبا، ومتصفا بحسن الخلق، وداعيا إلى المكارم، وملتزما بمضمون معيّن. ولكن واقع الأدب والأدباء إلى أواسط هذا العصر الحديث ظل يؤكد أن الأدب هو التميز بإجادة التفكير والتعبير، والاضطلاع بمهمة التهذيب والتغيير، علاوة على مهمتي الإمتاع والتأثير. وأن الأديب ليس صانع أشكال ولاعب مهارات لفظية وصاحب شطحات خيالية، بل صانع أفكار أيضا، وحامل قيم، وصاحب تجربة في المجتمع وفلسفة في الحياة. وهو ما يعني أن "الأدب" ظل وفيا لمعناه اللغوي رغم استقلاله عنه، لذلك ظل لكلمة "أديب" رنين في النفوس عجيب. أما الآن فقد وقع مصطلح "الأدب" تحت إغراء الحداثة التي حاولت أن تجره إلى لعبة الشكل، وتجرده من صلته بالمجتمع ودوره في الحياة، فصار طبيعيا أن يُنظر إلى الأدب والمنشغلين به كما يُنظر إلى لعبة للتسلية وتزجية الفراغ.

البلاغة

لا نبالغ حينما نزعم أن مصطلح "البلاغة" مسه هو الآخر ما مس المصطلحات السابقة من التحريف عن الدلالة اللغوية الأصيلة، تحريفا أدى إلى تضييق مجال دلالته وتهوين وظيفة مفهومه، وقوعا تحت إغراء فهمٍ قاصر للحداثة بعدِّها فلسفةً تقوم على نبذ المعيار ونقض القاعدة والتمرد على القوانين.

حين يُذكر مصطلح "البلاغة" يسرع إلى بال الطلبة والباحثين مفهوم العلم الذي يسمى "علم البلاغة"، وعموده جملةُ قواعدَ ومعاييرَ يُنصَح بالتزامها في إنشاء الكلام حتى يكون محل إفهام وإقناع وإمتاع وتأثير؛ وهي معاييرُ تم لها الاكتمال والاستقرار، فصارت علما ثابت القوانين يتفرع إلى علوم ثلاثة هي المعاني والبيان والبديع، ما

[7] ينظر: مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ/2000م، ج1، 23-27.
[8] ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار صادر، بيروت، ط1، 2000، ص447.

على المعلم إلا أن يستوعبها بأبوابها وفصولها، وتعريفاتها وشواهدها، ثم يلقنها للطلبة كما هي، كما لو أنها علم دقيق ثابت مستقر.

وبناء على هذا الفهم تتأسس انطباعات ومواقفُ من علم البلاغة بعيدةٌ عن الإنصاف، واقعة تحت إغراء الحداثة؛ أولها أن البلاغة علم قديم، وثانيهما أنه علم معياري، وثالثها أنه علم جامد يتعارض مع طراوة الفن وحرية الإبداع، ورابعها أنه علم تجاوزه الزمن وجرفته رياح الحداثة إلى زاوية العلوم الهامشية التي لا يضر الجهل بها ولا ينفع الاعتماد عليها، وخامسها أن النقد ومناهجه ونظرياته هو الذي ينبغي أن يُقبِل عليه الطالب والباحث في زمن الحداثة؛ لأنه هو العلم المتجدد المتحول، المنفتح على كشوف الحداثة وإنجازات الحضارة، خلافا لهذه البلاغة المعيارية المتجمدة القديمة !

وينتج عن ذلك، وقد نتج فعلا، أن يزهد الطالب في الجامعة في درس البلاغة، وأن ينفر الأستاذ من تدريسها، ومن ثم من الإحاطة بها والاستزادة من أسرارها، تهوينا من شأنها، وتحرجا من أن يكون مدرِّسا لعلم قديم تراثي معياري متجمد؛ وأن يتخرج طلبةٌ لا يتذوقون الكلام البليغ، ولا يقدرون على التعبير الفصيح، ولا يستطيعون إنشاء مقال على شروط السلامة اللغوية ناهيك عن شروط البلاغة والبيان؛ وأن يتصدى أساتذة باحثون لمهمة النقد وهم محرومون من الذوق، جاهلون بأسرار الجمال الأدبي، التي هي في اصطلاح القدامى "أسرار البلاغة"؛ يتحدثون في "النظم" و"الأدبية" و"الشعرية" و"جمالية التلقي"..، وهم يجهلون من علم المعاني ما يفرقون به بين نظم ونظم، وبين خطأ وصواب، وبين نقيصة وفضيلة، وبين نمط أدنى ونمط أعلى. ويجهلون من أسرار البيان وطرائف البديع ما يهتدون به إلى التذوق الدقيق والإدراك العميق لأدبية الأدب وشعرية الشعر وجمالية الفن !

لنعدْ إلى الدلالة الأصلية لمصطلح "البلاغة":

"البلاغة" من "البلوغ" وهو الوصول؛ وهي مصطلح على الصفة التي يكون عليها الكلام إذا استوفى شروط الوصول إلى السامع أو المتلقي وصولا تتحقق به أغراض الكلام من الإفهام والإقناع والتأثير وما إلى ذلك. لذلك عرّفها العسكري بقوله:

"البلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى قلبَ السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن."[9]

البلاغة إذن هي صفة الاقتدار على تمكين اللغة من أن تمارس فعلها المنوط بها أحسن ممارسة، بحيث تتحقق بهذه الممارسة مقاصدُ المتكلمين من توصيل للمعنى بحقه، ومن استحواذ على سمع المتلقي وفكره وقلبه، ومن حمله، تبعا لذلك، على التأثر والاستجابة للغرض الذي قُصِد به الكلام ابتداءً.

البلاغة هي وقوع المعنى في قلب المتلقي مُضافا إليه وقوع القلب في فتنة المعنى. هي، باختصار، الحال التي يكون عليها الكلام حين يتحول إلى سلطة حاكمة وفتنة آسرة؛ وليست هذه الحال سوى جملة الصفات التي يطلَق على الكلام حين اجتماعها أوصافُ "الحسن" و"الجودة" و"الجمال".

البلاغة، إذن، هي جمال الكلام. و"علم البلاغة" هو علم جمال الكلام؛ فإذا اصطلحنا على الكلام المتميز عن الكلام العادي العامي بمصطلح "الأدب" قلنا: إن "علم البلاغة" هو علم جمال الأدب. هذه هي البلاغة في أصل دلالتها اللغوية والاصطلاحية عند العرب. هي بلاغة الذوق وإدراك الجمال، وحسن التمييز بين طبقات الكلام، والاهتداء إلى لطائف الصنعة وأسرار البراعة، وكشف العلة في سحر الكلام الجميل وفتنة اللغة البديعة؛ هي اجتماع التذوق لجمال الأدب مع العلم بأسراره وقوانينه.

البلاغة في أصلها الذي كان، وجوهرها الذي به كانت وينبغي أن تكون، هي أدبية الأدب، وشعرية الشعر، وخطابية الخطبة، وقصصية القصة، ومقالية المقالة، ورسالية الرسالة، ومسرحية المسرحية، وجمالية كل جنس من أجناس الكلام؛ وعلم البلاغة هو العلم الذي ينبغي أن يشمل كل هذه الفنون بالدراسة المتذوقة لجمالها، المميزة لخصائصها، المدركة لقوانينها، المنفتحة على ألوان الإبداع والإضافة فيها.

البلاغة هي العلم الذي اشتغل به الجاحظ في البيان والتبيين، وابن طباطبا في عيار الشعر، وقدامة في نقد الشعر، والآمدي في الموازنة، والجرجاني في الوساطة، والعسكري في الصناعتين، وابن رشيق في العمدة، والخفاجي في سر الفصاحة، وعبد القاهر في "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة"، وابن الأثير في المثل السائر، قبل أن يتحول على أيدي السكاكي والرازي والقزويني ومن نهج نهجهم إلى جملة قواعدَ ومعايير، وشواهدَ وتعاريف، وأقسام

[9] أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1، 2006م/1427هـ، ص16.

وتفاريع، ومصطلحات ومفاهيم، توحي لمن لم يتأمل سياق وضعها وغايته بأن البلاغة تحولت إلى قواعد معيارية ثابتة، وقوالب منطقية جافة جامدة، وأنها شيء آخر غير النقد الذي بقي يبحث ويجتهد ويكتشف ويتكيف مع المستجدات.

لا، إن البلاغة والنقد أخوان توأمان وُلدا معا، وترعرعا معا، وشبا معا حتى استويا على عودهما علما له أصوله وقوانينه، وله فنونه وأفانينه. النقد إدراك البلاغة في الكلام البليغ، وتمييز طبقات البلاغة وكشف أسرارها ورسم قوانينها وتحليل نماذجها وتقويم أعمالها وتوجيه الناشئة إلى سبيل الوصول إليها. لولا البلاغة ما كان النقد، ولولا النقد ما كان علم البلاغة، وبغير البلاغة لا يقوم نقدٌ وبغير علم البلاغة لا يستقيم؛ فعلم البلاغة هو اكتشاف الناقد يظل ينمو ويتكاثر، وهو رصيده وحصيلة اجتهاده واكتشافه، يظل ينير له الطريق ويهديه. وليس النقاد غير أولئك الباحثين في أسرار البلاغة، المكتشفين قوانينَها واحدا بعد آخر، المميزين بين أجناس الكلام وطبقاته، الموازنين بين مراتب الأدباء والبلغاء ودرجاتهم بناء على ذلك.

ما ذنبُ البلاغة أن "أصبحت حدودا منطقية، وشروحا فلسفية، وصنعة متكلفة، فرأيناها تعابيرَ جامدة، وتعريفاتٍ أقربَ إلى حدود المنطق أو النحو منها إلى ذوق الفطرة وطبع النفس."[10]؟

بل ما ذنبُ السكاكي (المتَّهَمُ بتجفيف البلاغة وتحويلها إلى قواعدَ علمية منطقية) أنْ وجد البلاغيين قبله قد اهتدوا إلى رصيدٍ ثريٍّ من أسرار البلاغة وقوانينها، فجمع ذلك الرصيد جمعا منهجيا علميا، ييسر على الطلاب فهمه وتحصيله والإفادة منه؟ وهل ألزم السكاكي مَن بعدَه أن يلتزم تلك القواعد، ويحمّد البلاغة في تلك الحدود، ويُغلق عليها المنافذ دون أي تجديد أو إضافة أو توسيع؟

سواء علينا أقلنا مع مازن المبارك: "لقد فتحنا أنظار طلابنا على البلاغة يوم تحجّرت، ولم ندلّهم عليها يوم كانت ذوبَ الذوق العربي الأصيل، وثوبَ الجمال الفني الرائع البديع... ثم جئنا اليوم –في كلية الآداب– نطلب إليهم دراستها والعناية بها، وما هي في نظرهم إلا جثة محنطة."[11] أم قلنا مع محمد عبد المطلب إن الهجوم على تحول البلاغة إلى العلمية كان ظالما، "لأنه شرفٌ للبلاغة أن تكون علما، من أن تكون بحوثا مبعثرة، لا تلتزم بخطة، أو منهج يضبط حركتها. فلا نتصور أن تُعاب دراسة ما بأنها أخذت ثوبا علميا منظما، بل الأوفق أن

[10] مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ص7.

[11] المرجع نفسه، ص6.

تكون العلمية صفةَ مدح لا ذم، وهو ما تصبو إليه أية دراسة قديمة أو جديدة."[12]فإن الثابت، في نهاية الأمر، أن البلاغة هي، مثل بقية العلوم الإنسانية، علم لا يوصف بالقدامة أو الحداثة، اختصاصه البحث في قوانين جمال الأدب بمختلف فنونه وأجناسه، يسجل ما اجتمع من رصيد كشوفه ويرتبها ترتيبا علميا منهجيا تُضبط به قوانينُه ومصطلحاته، ولكنه، شأن كل العلوم، لا يغلق الباب في وجه أي جديد أو إضافة أو تعديل يثبت صاحبه وجاهته وصوابه. وإذا كان القدماء قد رصدوا في بلاغتهم قوانين جمالية تعم الشعر والنثر وتكشف بعض دلائل الإعجاز للقرآن الكريم، فإن المطلوب من المعاصرين أن يضيفوا إلى هذه القوانين أو يعدّلوا ما شاءوا، وأن يرصدوا قوانين فنون كلامية أخرى، كالقصة والرواية والمسرحية، إن شاءوا. وإذا كانت البلاغة القديمة كان أكثر عنايتها بالجملة لا النص، فليحدث المعاصرون بلاغة جديدة تعنى بالنص علاوة على الجملة. أليس ذلك أوفى لحقيقة البلاغة، وأقرب إلى إنصافها وخدمتها، من الزعم بأنها علم قديم ومادة متْحفية وقواعد متحجرة وقوالب جافة، ومن التملص منها باسم النقد –وما هي إلا حصيلة جهد الناقد ورصيدُه وبنكُه–، ومن تضييق الأفق عليها مصطلحا وغاية لصالح مصطلحات ومفاهيم دخيلة من قبيل "تقنية السرد" و"شعرية القص" و"بنية الخطاب" و"جماليات اللغة"؛ كأنما لا يصح أن نجعل البلاغة مصطلحا جامعا يضم تحت جناحه كل الجهود الهادفة إلى إدراك قوانين الجمال في كل خطاب، بغض النظر عن جنسه؛ فيقال "بلاغة السرد" و"بلاغة القص" و"بلاغة الخطاب".

صحيح أن البلاغة تطلق حيث يُستهدف معنى شروط الحسن والجودة والجمال؛ فهي حكم قيمي لا يقتصر على الوصف، خلافا للتقنية والبنية؛ ولكن كثيرا من الباحثين المعاصرين يستعملون، في كثير من الأحيان، مصطلحات "التقنية" و"البنية" و"الشعرية" وهم لا يقصدون غير الشروط التي يصير بها جنس الكلام الذي يتحدثون عنه جميلا. ولسنا نرى أنه يجب استبدال مصطلح البلاغة بهذه المصطلحات استبدالا مطلقا، بل نهدف إلى مجرد التنبيه على أن للمصطلحات دلالاتها الأصيلة التي ينبغي أن تُراعى، وأنه لا يصح استعمال مصطلح دخيل بدل مصطلح أصيل إلا حيث يثبت الدخيل كفايته والأصيل عجزه، أو يثبت الدخيل أنه هو الأنسب للمفهوم الذي استعمل لأجله. وإذا كان هؤلاء الباحثون لا ينون يُظهرون الثناء على عبقرية عبد القاهر والإعجابَ بكشوفه النقدية، فقد وجب تذكيرهم بأن عبد القاهر لم يكن تميزه الفذ بغير استنباطه القيّم لأسرار البلاغة.

[12] محمد عبد المطلب، البلاغة العربية: قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، ط2، 2007، ص2.